أدبائنا

بين الخوارزمي والهمذاني

للأستاذ علي الجندي

— ١ —

من أروع ما وعاه تاريخ الأدب في صفحاته تلك المناظرة الحادة العنيفة بين إمامين من أئمة الأدب ، أبي بكر الخوارزمي وبديع الزمان الهمذاني ، وقد أسفرت عن هزيمة أولهما هزيمة ساحقة ، لم يقو على احتمالها فقضى نحبه بعدها بقليل !

ما ذكرت تلك المصاولة قط إلا غام الحزن على عيني ، وملأ شعاب قلبي ، وشعرت للبديع بمقت شديد يكاد يعقل لساني عن الترحم عليه !

فى الحق أن هذا الرجل بالرغم من وصف الثعالبي[١] له : بحسن العشرة ، ونصاعة الظرف ، وعظم الخُلق ، وشرف النفس وكرم العهد ، وخلوص الود ، وحلاوة الصداقة ، قد التاثت نفسه بأمراض تتوارثها الكثرة الكاثرة من الأدباء جيلاً بعد جيل ، وتتمثل فى تلك الصورة الشوهاء من حدة الغيرة ، وفرط الأثرة وحمل الحقد ، وحب الانتقام والزراية على النظراء والسعي الجاهد فى هدمهم بالحق والباطل ، حتى كاد مدلول الأدب لطول ما اتسم أصحابه بهذه المثالب ، يرادف فى الأذهان نشوز الطبع وانحراف المزاج ، وانحلال الخلق ، والتمرد على الشرائع المرعية والارتكاس فى الخلاعة والمجون ، ورحم الله من قال :

ليس الأديب أخا الروا ية للنوادر والغريب
ولشعر شيخ المحدثين (م) أبي نواس أو حبيب[٢]
بل ذو التفضل والمرو ءة والعفاف هو الأديب

ولد أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمي (بخُوارِزْم)[٣] ونشأ بها متأدباً ، وإن كان أصله من طبرستان ثم جاب الأقطار من الشام إلى أقصى خراسان فى تحصيل العلم والأدب ، فبرع فى كل فن من فنون العربية ، وغزر محصوله من اللغة والشعر حتى كان يحفظ عشرين ألف[١] بيت من شعر النساء خاصة

ورشحه فضله لخدمة الملوك والأمراء والوزراء فى الدويلات المتفرعة عن الخلافة العباسية ، وكانت خاتمة مطافه ، مدينة نيسابور من أعمال خُراسان ، فاتخذها دار إقامة ، واقتنى بها الدور الفاخرة ، واعتقد الضياع المُغِلّة ، وفرغ إلى الكتابة والشعر وتصدّر للتدريس ، وظن أنه يستطيع أن يقضي بقية عمره هادىء النفس ناعم البال ، فى ظل النعمة الفاشية والثراء الواسع والجاه العريض ، ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه ، فقد مُني بهذا الواغل الدخيل ، فنغّص عليه عيشه ، وشاب صفو حياته ، وساقه إلى الفناء الذريع !

ولم يكن الخوارزمي دون الهمذاني فى حوك القصائد ، وتحبير الرسائل ، وجمع اللغة ، وحفظ الأشعار والأخبار ، بل ربما كان أوفر منه حظاً فى كل ما يتصل بالنقل والرواية ؛ ولكن الهمذاني كان يمتاز بحدة القريحة وحضور البديهة وشدة العارضة وسرعة الخاطر وقوة الارتجال ، وهى أمضى سلاح يملكه المناظر لقهر خصمه وإفحامه

وما ظنك برجل[٢] كان يُنشد القصيدة تبلغ خمسين بيتاً لم يسمع بها قط ، فيحفظها كلها ويؤديها لا يخرم منها حرفاً واحداً ! ويُقترح عليه إنشاء قصيدة أو رسالة فى معنى من المعاني ، فيفرغ منها فى الوقت والساعة ! وينظر فى أربع أوراق أو خمس من كتاب نظرة طائرة فيحفظها ويسردها عن ظهر قلبه ! ويُقترح عليه الكتاب فيبتدئ بآخر سطر منه ، وينتهي بأوله ويخرجه كأحسن شيء وأملحه ! وتُلقى عليه الأبيات الفارسية فيترجمها شعراً إلى العربية جامعاً بين الإسراع والإبداع ! إلى غير ذلك من العجائب والغرائب التي يحلو لى أن أسميها بشعوذة البيان !

ومع أن هذه الصفات مواهب عظيمة لم يُرزقها كل إنسان ولا ينكر خطرها فى ميادين المصاولة الأدبية ، إلا أنها لا تصلح أن تكون فيصلاً فى الحكم على أقدار الرجال وآثارهم . فأبو العتاهية مثلاً وهو رأس شعراء البديهة لا يتسامى إلى منزلة مسلم بن الوليد وأبي تمام وابن الرومي من شعراء الرّوية ، والمتنبي — على سنيّ مكانته — تعد مقطوعاته الارتجالية من سقط المتاع ، حتى تمنى بعض شارحي ديوانه أنْ لو خلا من هذا السخف والهذر ، وعبد المحسن الكاظمي أقوى شعراء العصر طبعاً وأسرعهم

(١) يتيمة الدهر ٤ — ٢٤١ (٢) أبو تمام

(٣) على بحر خوارزم الذى يسمى بحيرة أرال من خصائصها البطيخ الذى كان يحمل إلى المأمون والواثق فى قوالب الرصاص معبأة فى الثلج فكانت تقوم الواحدة السالمة منه بسبعمائة درهم

(١) هبة الأيام للبديعي (٢) يتيمة الدهر ٤ — ٢٤٠ — ٢٤١

خاطراً ، ولكنه لا يُوزن بشوقى من شعراء الأمة ، بل لا يقاس بحافظ وهو أكثر الشعراء تعباً فى نحت القريض وصوغ القوافى

ولم يكن سلاح البديع مقصوراً على هذه المزايا الخارقة التى أوردناها ، بل كان – إلى ذلك – فى طراءة عمره وغضارة شبابه وكان الخوارزمى قد علت به السن فنحيفت جسمه وعقله معاً

وأنكى من هذين على الخوارزمى أن جماعة من وجهاء نيسابور لا يخلو من أمثالهم بلد من بلاد الله ، كانوا يكرهونه وينفسون عليه نعمته ، فصاروا عليه إلْباً فى هذه المحنة ، وشدوا أزر خصمه ، ولا شىء أنكى للعزيمة وأقعد بالهمة من خذلان الآل والأقارب !

وهى حال شاذة ممضة أنطقت بالشكاة كثيراً من جِلّة الفضلاء ! فقال فى ذلك قاضى الأندلس وخطيبها المصقع المنذر ابن سعيد :

هـذا المقال الذى ماعابه فَنَدُ ... لـكنّ صاحبه أزرى به البلد
لو كنت فيهم غريباً كنت مُطَّرَفاً ... لكننى منهمو فاغتالنى النَّكد

وقال الفيلسوف ابن حزم :

أنا الشمس فى جو السماء منيرة ... ولكن عيبى أن مطلعى الغرب
ولو أننى من جانب الشرق طالع ... لجدّ على ماضاع من ذكرىَ النهب
هنالك تدرى أن للعلم غصّة ... وأن كساد العلم آفته القرب
فوا عجبا من غاب عنهم تشوفوا ... له ، ودنوّ المرء من دارهم عيب

ولنأخذ الآن فى إيراد هذه المناظرة ، موفّقين بقدر الإمكان بين الروايات المختلفة ، فنقول :

فى سنة ثمانين وثلاثمائة هـ فارق البديع بلده همذان التى نشأ به وتأدب ، إلى حضرة الصاحب بن عباد وزير آل بويه وخليفة ابن العميد ، وهى – إذ ذاك – مرتق العيون ، ومناط الآمال ، ومحطّ الرحال ، فلقى فيها ما يلقاه كل أديب : من كرم الوفادة ، وحسن الرعاية ، وجميل التعاهد

وكان مجلس هذا الوزير العالم الأديب ، آخر مجلس لوزير ضم خيرة العلماء وصفوة الأدباء ، وأعيان المتفننين والمتكلمين ، وهم دائماً فى حوار متصل ، وجدال مستحر ، ومذاكرة دائبة لا تهدأ ولا تفتر ، فكان لذلك أثره البالغ فى صقل مواهب البديع ، وفتق جنانه ، وتزويده بمعارف جديدة واسعة ، وهو فى مقتبل الشبيبة وميعة الحداثة

وكان الظن بمثله أن يضن بمفارقة هذا الروض المونق والجناب الخصيب ، ولكنا رأيناه فى سنة اثنتين وثمانين وثلاثمائة يشخص إلى خراسان ، وبعد جولة قصيرة فى ربوعها يرد نيسابور[1] وقد سلبه قطاع الطريق ما يملكه من مال ومتاع !

ونيسابور هذه مدينة مقرورة يهرأ بردها الأجسام ، ويُوسم أهلها[2] بالجفاء والشغب والضعف والخبث وكراهة الغرباء ! وفيها يقول السمعانى :

لا قدس الله نيسابور من بلد ... مافيه من صاحب يُسلى ولا سكن

ويقول فيها المرادى :

لا تنزلن بنيسابور مغترباً ... إلا وحبلك موصول بإنسان
أولا ، فلا أدب يغنى ولا حسب ... يجدى ولا حرمة ترعى لإنسان

ويقول أيضاً :

قال المرادىُّ قولاً غيرَ مُتَّهَمِ ... والنصحُ – ما كان من ذى اللب – مقبولُ
لا تنزلنّ بنيسابور مغترباً ... إن الغريب بنيسابور مخذول

فما هو سر اختيار البديع لها بالذات ؟ وقد كان له فى غيرها مراد ومسرح . أهو حب التنقل والضرب فى البلاد ، للدراسة والاطلاع ، واستفادة العلم والمال ؟ وهو الطابع الغالب على علماء هذه العصور وأدبائها ؟ أم هو القصد إلى مناضلة الخوارزمى وانتزاع صولجان الشهرة منه ، حتى يقال عنه : إنه غزا النسر فى وكره واقتحم على الليث عرينه ؟

على أن بعض المؤرخين[3] يسوق لهذه الرحلة علة طريفة نذكرها للتفكهة : وهى أن البديع كان فى مجلس الصاحب يوماً فخرج منه ما يخرج من غير المتمكن فى قعدته ؛ وكان خيراً له أن يلوذ بالصمت ، ولكنه أراد أن يموّه على الصاحب فقال : هذا صرير التخت ! فقال الصاحب : أخشى أن يكون صرير التحت ! فخجل البديع خجلاً شديداً حمله على مفارقة حضرته والخروج إلى خراسان !

ويلذ لنا أن نقول – بهذه المناسبة – : إن مجلس الصاحب – على رفعة شأنه – كثيراً ما كان مسرحاً لهذه الزعازع ! وكان الصاحب لا يمنعه وقاره أن يعقب على ذلك بالنكتة البارعة والتورية اللطيفة

(١) كانت مدينة شهيرة من مدن خراسان عرفت بالفيروزج النفيس والثياب الرقاق ، وقد خربها التتار فى غارتهم ولم تعمر ثانياً
(٢) نهاية الأرب فى خصائص البلدان ج ١
(٣) معجم الأدباء ٢ — ١٨٤

فمن ذلك أن الصاحب أخذته ليلة سِنةٌ من النوم ، وبين يديه جماعة من الأدباء شرع أحدهم في قراءة (الصافات) واتفق أن نام أيضاً بعض الحضور ، فأحدث صوتاً منكراً أيقظ الصاحب من نومه ! فقال — يخاطب سمّاره — : يا أصحابنا ، نمنا على (والصافات) وانتبهنا على (والمرسلات)

وأظرف من ذلك : أن الفقيه ابن الخضيرى كان يحضر مجلسه بالليالى ، فغلبته عينه مرة ، فخرج منه شيء فخجل وانقطع عن المجلس ، فقال الصاحب أبلغوه عنى :

يا ابن الخضيرىّ لا تذهبْ على خجَل
لحادث كانَ مثل النّاى والعود

فإنها الريح لا تستطيع تحبسها إذ لست أنت سليمان بن داود

وكيفما كانت الأسباب التى حفزت البديع إلى انتجاع نيسابور فقد بدأت المناوشة بين الرجلين بكتاب أرسله الهمذانى إلى الخوارزمى ، صدّره بهذا الكلام المعسول : إنا لقرب[1] دار الأستاذ — أطال الله بقاءه — كما طرب النشوان مالت به الخمر ، ومن الارتياح إلى لقائه ، كما انتفض العصفور بلله القطر ، ومن الامتزاج بولائه ، كما التقت الصهباء والبارد العذب ، ومن الابتهاج بمزاره ، كما اهتز تحت البارح الغصن الرطب

ثم ختم كتابه بأن طلب منه إرسال غلامه لينفض له جملة حاله والتقيا بعد ذلك على موعد مضروب فى دار الخوارزمى ، وما نشك فى أنه أكرم مثواه ، وأحاطه بألوان البر والرعاية ، ولكن البديع كان مدخول النية مطوىّ الجوانح على الضغينة ! فخرج من دار مُضيفه غير حامد لقياه ، وأرسل إليه كتاباً حشوُه عتاب مرّ ، يذكر فيه : أن الخوارزمىّ استزراه لتربته ، واقتحمته عينه لرثاثة ملبسه ، وأنه تكلف القيام له والسلام عليه ، وأنه كان كلمه بنصف طرفه ، ويشير إليه بشطر أنفه ، وأن أهل بلده همذان فى الذؤابة من الشرف والسيادة ، وفى الصميم من الجود والسماحة ، ولو قد حل الخوارزمى بينهم لخبئوه فى سواد العيون والقلوب !

وقد رد عليه الخوارزمى رداً جميلاً يستلّ السخائم ، ويطفىء الأحقاد ، ولكن موقف البديع منه أشبه بموقف الروسيا من فنلندا : إدلاء بالباطل وتورُّط فى الضلال ، وتجن للذنوب ، وتصيد للمثالب ، ومن كان هذا شأنه فإرضاؤه محال

وهكذا أخذت تتردد الرسائل بينهما وهى تزداد عنفاً وحدة ، حتى انتهى الأمر إلى الخصومة الصريحة ! التى كان يعمل لها البديع ومَنْ وراءه كل وسيلة !

وكان يمكن إطفاء هذه الثائرة لولا أن خصوم الخوارزمى الذين سبقت الإشارة إليهم انتهزوها فرصة للنكاية به ، فأذكوا العداوة وأرّثوا النار !

وكان أن أرسل نقيب الأشراف إلى الخوارزمى يستدعيه إلى داره ليجمع بينه وبين البديع ، فترفع عن المجيء لأنه كان يعرف ما دُبّر له ، فأحرجه النقيب بإرسال دابته إليه ، وشفع ذلك البديع برسالة يستفزه بها ! فلم ير الرجل بداً من الحضور يحف به تلاميذه البررة فالتقى الخصمان فى بيت النقيب وجهاً لوجه وقد حُشرَ الناس ليروا لمن تكون الغلبة !

(يتبع) على الجندى

(١) الوافى بالوفيات ١٢٨

M. Arab. 147

منقذ الآف الأحياء

إن نحواً من العشرين ألف شخص يتقذون الآن وكل سنة فى ايطاليا بفضل أنجلو تشالى الاختصاصى الشهير للملاريا .

فبعد الاكتشاف الذي توصل إليه روس حوالى سنة ١٩٠٠ فى الهند الانجليزية وكراسى فى ايطاليا هذا الاكتشاف الذى سمح بمعرفة الدور الذى تقوم به طفيلية الملاريا فان كراسى هو أول من توصل إلى استنتاجات عملية . فالملاريا كانت تسبب فى بلاده ٢٠٠٠٠ وفاة كل سنة وكان عدد الاصابات بالمرض يفوق بكثير فان كراسى كرس حياته ساعيا لتغيير هذه الحالة فظن أولا انه يستطيع أن يتوصل الى نتائج جيدة بالتجائه إلى وسائل ميكانيكية بحته مثل حواجز مشبكة وناموسية وتجفيف لكنه ما لبث أن عرف ان هذا غير كاف وتوصل حينئذ إلى استعمال الكينا كدواء واق فكل الناس الساكنين فى منطقة عمت فيها الحميات والملاريا رأوا أنفسهم فى مناعة من عدوي هذا المرض باخذ الكينا بانتظام .

إن تشالى الذى كان عضواً فى البرلمان هو الدافع إلى التشريع الايطالى الشهير بخصوص الملاريا وهو التشريع الذى يمكن أن يكون مثلا لعدد كبير من البلدان الأخرى فمنذ سنة ١٩٠٤ يلزم هذا القانون كبار الملاك والمديرين أن يوزعوا الكينا مجانا على سبيل الوقاية والشفاء فقبل الحرب الكبرى كان يوزع هكذا كل سنة فى ايطاليا ٢٠٠٠٠ كيلو جرام كينا .

ثم أعلنت الحرب سنة ١٩١٤ وكان ان مات تشالى بعد أن رأى الوفيات بالملاريا يتقص من ٩٠ بالمائة بفضل تدابيره .

فالأسلوب الذى أشار به تشالى لمحاربة الملاريا باستعمال الكينا قد استعملته لجنة الملاريا بجمعية الأمم وأوصت بأخذ ٤٠٠ ملليجرام يوميا من الكينا على سبيل الوقاية طول مدة موسم الحميات حيث يخاف الناس من العدوي . وإذا أصيب الانسان بالمرض فيجب أخذ جرام واحد أو جرام وثلاثين سنتيجرام من الكينا كل يوم مدة خمسة أو سبعة أيام ولا لزوم فى هذه الحالة للمعالجة التكميلية فلجنة الملاريا تصف على الأخص استعمال الكينا بأن هذا العلاج لا ضرر منه حتى بين أيدى من يجهلون استعماله .